علاقات الإسبان بقبائل وهران بين الولاء والبراء

الدكتورة/ قبايلي هواري.
جامعة مصطفى سطمبولي معسكر.
الجزائر

Abstract :

One of the Spanish occupation consequences of the city of Oran was to put the local authorities in the obligation of managing very difficult situation imposed by the Spanish occupant and the agony of the the zianides state. This happened in a unique historical context which leaves the fate of local tribes between submission and revolt.

In the foreground, this contribution tried to analyze the origins of these tribes and their role within the baylical makhzen like the controversial case not yet elucidated of the "smala" and the "douair" or for the vassal tributary tribes like "Maghatisse" and other tribes between submission and rebellion like the "bni amer" and "flita". However, the Spanish occupation will upset its alliances with the region tribes notwithstanding the refusal and anathema thrown by the oulemas and the great Sufis of the time against the treachery of the tribes' chiefs who accepted to give allegiance to the Spanish

1–الأصول التاريخية لقبائل وهران:

إن لمن الصعب بمكان تحديد الأصول التاريخية للقبائل الوهرانية المعروفة حاليا ، التي سكنت الإطار الجغرافي لمدينة وهران وأحوازها ، هذه المدينة التي أغرم بها إبن خميس التلمساني لما حل بها حيث قال " أعجبني بالمغرب مدينتان بتغرين وهران خزر (خزر بن مغراو مؤسس مدينة وهران)وجزائر بلكين (أي بنو زيري بن مناد مؤسس مدينة الجزائر)"، هذه المدينة التي أول من إختطها المغراوي خزر بن حفص بن صولات في العام التسعين أو الواحد والتسعين أو الثاني والتسعين من القرن الثالث للهجرة ، بأمر من عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان الأموي الأندلسي[1]، وتعتبر مغراوة قبيلة من القبائل البربرية أحدى بطون قبيلة زناتة ، وكما يقول البكري أن جماعة من الأندلس بمساعدة نفزة وبني مسغن إختطوا وبنوا المدينة[2]، وقيل في أسمائها أخبار عدة وفرضيات كثيرة ، لكن ما هو ثابت أن من سكنها في البداية قبيلة مغراوة التي كان يمتد ملكها لأراضي شاسعة تمتد من مليانة إلى غليزان ، لكن الخزريون (ولا يمكن بأي حال ربطهم بخزر البحر الأسود) ، وهم بطن من بطون مغراوة إستقر بوهران ، لكن سرعان ما نافستهم على ملك وهران قبائل أخرى،وكانت الحروب سجال بينها وهي قبيلتي إزديجة وعجيسة، التي كانت مواطنها غربي مدينة وهران قبالة جبل الهيدور ، وإختلف في أصولهم هل هم من زناتة أم بربر برانس جاؤوا من الأوراس ، وهم على الراجح أصول قبيلة بني مسرغن غرب وهران[3]، ثم توالت على حكم وهران الدول الكبرى التي حكمت المغرب الإسلامي، من عبيدين ومرابطيين ثم الموحدين ،يولون من ناصرهم على ملك المدينة بين الخزريين وخصومهم ، إلى أن أستقر الأمر لبني زيان الذين اعتبروها من أهم مدنهم بمرافئها

الكبيرة بوهران والمرسى الكبير ، إلا أن شهادات كثيرة تثبت العلاقات المتشنجة بين سكان وهران وملوك بنو زيان ، والتنافس الكبير بين المدينتين [4].

يقدر ليون الأفريقي في كتابه وصف إفريقيا أن سكان وهران كانوا حوالي 6 ألاف كانون [5] (أي عائلة والتي كانت تقدر بتسعة إلى عشرة أفراد)، في وقت قدر فيه سكان بجاية بنفس العدد،والتي كانت أهم وأخطر مدينة من مدن المغرب الأوسط في تلك الفترة ، وقدر ب4 ألاف كانون سكان مدينة الجزائر ، هذا ما يجعلها من أهم المدن بالمنطقة بتلك الفترة ولابد أنها كانت مركز جذب للسكان ، ويضيف ليون الإفريقي في وصف وهران قائلا"وكان بها من البنايات والمؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة ،من مساجد ،مدارس وملاجئ وحمامات وفنادق ، ....وكان معظم سكانها من الصناع والحاكة ، ويعيش الكثير من أهلها من مدخولهم ، لكنها لم يسد فيها الرخاء ...ومهما يكن من أمر فإن أهلها ظرفاء كرماء يحبون الغرباء.....وكان الوهرانيون دائما أعداء لملك تلمسان ، لم يقبلوا قط أي وال من ولاته " [6] وهذه الشهادة كما أسلفنا تدل على سوء العلاقات بين بني زيان وأهل وهران.

وفي تلك الفترة عرفت وهران وفود العديد من المجموعات البشرية ، والقبائل غيرت من تركيبتها الإجتماعية والجغرافية ساهم في ذلك أسباب عديدة ، من بينها طرد المسلمين من الأندلس حيث عرفت المدينة حصتها من الهجرات الأندلسية كغيرها من المدن المغاربية الساحلية ،كما عرفت المدينة إزدهارا في العهد الزياني، حيث قصدها التجار والمغامرين من كل حذب وصوب، الذين شكلوا فئة الأجانب من قطلونيين وجنويين لكن إحتلال الإسبان للمدينة إبتداء من سنة 1505 بإحتلال المرسى الكبير هذا المرفئ الذي يقول عنه ليون الإفريقي "لم أرى مثله في الدنيا" [7]، حيث كان أهم ميناء لبني زيان،ثم ما لبثت أن سقطت وهران سنة

1509 ،والتي أفرغها الإسبان من سكناها الذين أبيدوا عن بكرة أبيهم ،حيث ثم ذبح خمسة ألاف شخص ، وأسر ثمانية ألاف بيعوا كعبيد في سوق النخاسة ،وهذا ما ترك المدينة شاغرة وخاوية على عروشها ولم تسلم إلا بعض القبائل التي كانت في الأطراف والأحواز ، والتي ستتميز علاقاتها مع الإسبان بتذبذب واضطراب في البداية وسرعان ما سوف تقبل وتتعامل مع الأمر الواقع، وتقبل الدخول تحت حكم الإسبان .

يقول صاحب بهجة الناظر " لما إستقل قدم الإسبانيين بوهران إنحاز إليهم طوائف من الأعراب الذين ضعف إيمانهم والعياذ بالله من ذلك ، فصاروا خدمة لهم ، ومن جملة جيشهم، وكثر بهم السواد على المسلمين ، فكانوا لهم عليهم أعوانا ، وفي الدين الفاسد لهم إخوانا، فشنوا بهم الغارات ، وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات "[8].

وأول هذه القبائل التي قبلت التعامل مع الإسبان قبيلة **كريشتل** وهم حسب المشرفي من مغراوة وكانوا قليل العدد لكن كانت لهم شوكة وقوة ، أصل مساكنهم نهر شلف ، ثم انتقلوا إلى مزغران، ثم سيرات ، إلى أن إستقروا في مواطنهم الحالية منذ القرن الرابع عشر الميلادي[9] ، لحصانة الموقع الذي لا طريق له إلا من جهة وعرة ، وتعاملوا مع الإسبان كما سوف يأتي ذكره.

ثم قبيلة **شافع** من بني عامر بن زغبة الهلالي ، سكنوا عين البيضاء من أرض ملاتة ، وكانوا جندا للإسبان في وهران، وحسب المصادر كانوا في أرفع مرتبة عند الإسبان دون غيرهم من بني عامر ، وكانوا حوالي عشرين دوار ، كما كانوا أهل نجدة وبأس[10] .

ثم قبيلة **حميان** : التي رغم طابعها البدوي المتحرك والمعتمد على حياة الحل والترحال إلا جزء منها إستقر بأحواز وهران ، وكانوا يزودون الإسبان بكل ما يحتاجونه ، وبالخصوص الماء الذي

كان مشكلا كبيرا في وهران ولا يزال ، ويقال أنهم ساعدوا الإسبان على بناء حصن مرجاجو، وأنه سمي بهذا الإسم نسبة لأحد شيوخهم الذي أشار ببنائه[11].

ومنهم قبيلة **غمرة**:عددهم يزيد عن ستة دواوير وهم من البربر ، أصولهم من برقة ثم دخلوا المغرب الأوسط وسكنوا وهران.

ومنهم **قيزة** وهم فرقة من بني عامر سكنوا ناوحي تارقة ، ثم رحلوا إلى ملاتة مع الونازرة، وسكنوا ضواحي تمزوغة .

ومنهم أولاد عبد الله التالي وهم فرقة من بني عامر ، سكنوا ملاتة .

ومنهم أولاد علي مسكنهم بجبل ماخوخ قرب الطافراوي حاليا ، وهم فرقة كبيرة يناهزون السبعين دوار ومثلهم مثل أولاد عبد الله يشكلون بطن من بطون بني عامر .

الونازرة وهم الذين سيشكلون العرش الرئيسي في قبيلة الزمالة كانت مساكنهم نواحي تموشنت ثم سكنوا سهل ملاتة [12]

هذه العناصر تشكل المجموعات الكبرى التي تشكل أصول القبائل الوهرانية ، لكن لا يمكن عدم ذكر عناصر أخرى شكلت في المرحلة العثمانية مخزن وهران ، بعضها عمل مع العثمانيين منذ دخولهم إلى أرض الجزائر وسقوط الدولة العثمانية ،والبعض الأخر بذل ولائه ودخل في طاعة باي وهران بعد الفتح مباشرة، والغريب في الأمر أنه ثم قبولهم كقوات في المخزن الوهراني مباشرة ، يمكن أن يكون ذلك راجع لقوتهم وبأسهم ومعرفتهم بشؤون القتال ، وسوف نشير إلى قوات المخزن الغربي من الدوائر والزمالة والبرجية والغرابة ، وما يتفرع عنهما ، ومن الخطأ أن نتتبع أصول كل قبيلة أو عرش ، لإستحالة ذلك، فلا يمكن أن تكون لها أصول واحدة بل تجمعت وتزملت وتدورت على أحواز مدينة وهران ،وبقي الإسم يلازمها

من زمالة ودواير ، ومع طول الوقت ثم الإعتقاد أنها تشكل مجموعة بشرية واحدة متجانسة لها نفس الأصول وهذا خطأ، فهذه الأعراش والفئات دخلت تحت ظل سلطة بايلك الغرب لمعرفتها بشؤون القتال ، وكذلك لإستبعاد الأتراك لبني عامر الذين طالما شكلوا مخزنا لبني عبد الواد، وهذا الشغور استغلته هذه المجموعات والتي لم يجد بايات وهران بديلا عنها لتشكيل قوات المخزن.

وأهم مكون في الدواير هم البحايثية، نسبة لجدهم أحمد الباحث وهم من قبيلة سويد من المحال والتي زعم من زعم أنها من بني مخزوم ، ويرى أن جدهم الباحث جاء للمنطقة في القرن 11 الهجري [13]، حسب صاحب طلوع سعد السعود ، وهذا حسب رأينا مستحيل كيف في قرن من الزمن يكون عقبه قبيلة قائمة بذاتها يخشى بأسها ، وتشكل القوة الضاربة للمخزن ، ونظن أن شخصية الباحث موجودة ، ولكن تاريخ وجوده كما ذكره المازاري خاطئ حسب رأيي.وأبرز القيادات المخزنية من البحايثية الآغا قدور الكبير ، وعائلة المازاري ، ومصطفى بن سماعيل البحثاوي[14].

الكراطية: وهم من نسل الشريف الكرطي من شرفاء الراشدية نسبته مدينة الكرط من مدن غريس الغربي ، تولى البعض منهم قيادة المخزن ، كما تقلدوا على بعض قبائل فليتة.
ومنهم البناعدية أولاد بن عودة بن خدة وأصلهم من أجواد الحشم .
ومنهم الدوايدية، وهم عرش من عروش الدواير لهم شهرة كبيرة في مدينة وهران أصلهم من هبرة ، تولى جدهم قيادة هبرة ثم نقله الأغا عثمان بن إسماعيل البحتاوي إلى ملاته ومن نسلهم العقيد بن داود صاحب المثل المشهور[15].

أما البرجية فأصولهم واحدة وليس ملتقطين ويدعي صاحب الطلوع أنهم أشراف وأبناء عمومة الأمير عبد القادر، ويوصلهم النسابة إلى الأدارسة ، ومنهم النقايبية والبلغية.

الزمالة ، وبطونه ثمانية المخاليف ، القدادرة، القرايدية، الورادرية، المخاترية، الونازرة، اليساسفة ، الشوايلية.

أما المخاليف ، فتعود أصولهم لبني زروال تولى منهم قدور بن مخلوف ، والحاج المرسلي بن محي الدين، وعدة بن مخلوف.

القدادرة : وجدهم قدور بن علي الحبوشي .

القرايدية أو المعايزية: نسبة لجدهم أحمد أبي معزة الذي تولى الأغوية في عهد الأتراك ، وعدة بن مخلوف ، وأصلهم من بني أمديان.

الورادرية: أصلهم من أولاد مسعود جاء جدهم إلى بلاد الغرابة، وسكن سيق وبانت شجاعته فولاه الأتراك مشيخة الغرابة.

المخاترية: نسبة لجدهم المختار جاؤوا من صبيح وسكنوا عرش الزمالة .

الونازرة: وسبق ذكرهم نسبة لجدهم ونزار ، رتبناهم هنا لنعدد عروش الزمالة ،ويقال أن جدهم جاء الساقية الحمرا ،بينما يذكر ابن خلدون أنهم بربر لكن كما ذكرنا سابقا يجعلهم صاحب بهجة الناظر من ضمن بطون بني عامر .

واليساسفة:نسبة لجدهم يوسف.

الشوايلية: نسبة لجدهم شايلة وهو من الحشم بغريس تولى منهم قدور بن شايلة قيادة الزمالة بدولة الترك في الجزائر[16].

الغرابة : أو عبيد الغرابة ، هناك عبيد الشراقة سكنوا منطقة غرب مستغانم بـ"إستيديا" بالضبط ، أما عبيد الغرابة فسكنوا شمال سيق يقال أن أصولهم من بقايا عبيد مولاي إسماعيل رافقوه عند غزوه لوهران وبقوا هنالك ، وكل من جاورهم أصبح يسمى باسمهم ، حتى تعددت عروشهم كل واحد منها جاء من منطقة معينة على غرار الوراردية، العلايمية ، الخدايمية، الوناونية، السهايلية، المحاميد، الرفافسة، العوايلية[17].

2.الإحتلال الإسباني لمدينة وهران:

بعد النجاح الذي حققه الإسبان في إحتلالهم للمرسى الكبير ،كأهم ميناء في الغرب الجزائري ، في 23 أكتوبر 1505 ، جهزت إسبانيا أسطولا كبيرا بقيادة كاردينال إسبانيا Ximénès Cisneros ، والقائد بيدرو نافار ، على رأس 15000 جندي لإحتلال وهران، ونزلوا بالمرسى الكبير ،مستعينين في أغلب المصادر ببعض الخونة ، أمثال اليهودي سطورة ، والذي فتح لهم أبواب وهران[18] ،ويبدو أن هذه الرواية من أشهر الروايات تداولتها أغلب المصادر التي تناولت تاريخ وهران، بينما صاحب وصف إفريقيا ، يحمل المقاومين سبب الهزيمة لأنهم خرجوا لملاقاة الجيش دفعة واحدة خارج الأسوار ، وتركوا المدينة بدون حماية ، فتفطن الإسبان للأمر فبعثوا بمن باغت المدافعين من ورائهم في حركة إلتفافية [19]،وربما من جهة الشرق حيث بعض المصادر تقول أنهم دخلوا من باب كناستيل [20]، فلما رأى المدافعين الإسبان من ورائهم ذب الذعر والفوضى في صفوفهم ، ووقع عليهم العدو من كل مكان ، فكان ذلك سبب هزيمتهم ، فدخلها الإسبان وعاثوا فيها فسادا .

ويدلي "ولسن إسترهازي" بشهادة عن علاقات بين الإسبان بقيادة الكردينال وبين الثري اليهودي الاشبيلي ، الذي وعده بتسليم المدينة للإسبان ، وكان ذلك عبر حيلة إهتدى لها

بتعبئة جنود إسبان في سفن اليهودي ، وإدخالهم خلسة إلى مخازنه في "برج لمون" ، و لم يكن ذلك ممكننا لولا تواطؤ عاملين للسلطة الزيانية كانوا بمتابة ضباط جمارك بلغة اليوم سمحوا بدخول هذه القوات[21].

بعدها لم يفطن أهل وهران إلا برايات الإسبان فوق أهم حصن من حصون المدينة، وهذه الرواية أكثر موضوعية وقبولا من الروايات ، التي تجعل من اليهودي كأنه مكلف بحفظ أبواب المدينة ، ولا نظن أن أهل وهران كانوا بذلك الحمق وتلك الغفلة ، حتى يسلموا أمرهم لهذا اليهودي الإشبيلي.ومنذ ذلك الوقت سمي ذلك الحصن "ببرج اليهودي "، بينما يسميه الإسبان "بحصن القرد"، « Castillo de la mona» [22].

وعندما رأى الكاردينال القتلى من أهل وهران، وكانوا بالآلاف قال " لقد كانوا كفارا، وكنا نستطيع أن نجعلهم مسيحيين، يسرني هلاكهم، وهي أكبر فائدة جنيناها من هذا الانتصار" ، وفي شهادة أخرى تدل عن الحالة المرضية لهذا الكاردينال حيث يقول " إنني ابكي أرواحهم(يعني أهل وهران)، والذين كنت أتمنى أن أخذ بيدهم لمعرفة الرب الحقيقي" [23].

وكانت حصيلة هذا الإحتلال ثقيلة جدا وكارثية بكل المقاييس بحوالي خمسة ألاف قتيل ، وثمانية ألاف أسير بيعوا في سوق النخاسة بإسبانيا،وحوالي خمس مئة ألف أوقية ذهب ، وبقيت القصبة عصية على الإسبان حتى إشترط حاكم المدينة المتحصن فيها التسليم فقط للكاردينال الذي عاهده بحقن دمعه ومن معه [24].

3. أثر الإحتلال الإسباني على قبائل مدينة وهران:

لم يقنع الإسبان بما حققوه من إنتصار كبير بإحتلالهم وهران والمرسى الكبير ، فأرادوا توسيع دائرة نفوذهم وفكروا في التهدئة وتأمين سهول وأحواز وهران وضواحيها ، وكان أول

إستطلاع حتى قبل 1509 تاريخ إحتلال وهران ، حيث شنوا حملة على قبيلة غمرة في جوان 1507 ، على شكل غارة ليلية ، أسر على إثرها أفراد من هذه القبيلة ، والاستحواذ على مواشيهم ، وعاودوا الهجوم على نفس القبيلة سنة1513 التي كانت تقع مساكنها غرب المرسى الكبير ، ثم قاموا بالهجوم على قبيلة الونازرة سنة 1514 التي خضعت لإرادة الإسبان منذ ذلك التاريخ، ، ثم جاء دور على قبيلة قيزة سنة 1517 ، قرب مدينة تمزوغة، والتي بدورها خضعت للإسبان ، وجاء الدور بعد ذلك على أولاد علي الذين خضعوا للأمر الواقع ، ثم ما لبثت قبيلة شافع أن خضعت للإسبان هي الأخرى بعد حملة سنة 1528 على مواطنهم بعين الأربعاء[25] .

ومنذ ذلك الحين أخلصت هذه القبائل الولاء للإسبان ، وربطت مصالحها بمصالحه ، وإستعدت بصنيعها كل القوى المحلية التقليدية ، من قبائل وعلماء وسلطة مركزية وفقهاء وشيوخ زوايا وكل المثقفين في ذلك العصر .

ولعل من أخلص الولاء للإسبان بشكل غير طبيعي هم قبيلة كريشتل حيث يقول المشرفي " وكانت(يعني كريشتل) لهم زواريق يسافرون فيها من مداشرهم إلى وهران ، إذا اشتد عليهم الأمر ، وسدت عليهم الطرق البرية، يحملون فيها للإسبانيين ساير الخضر ، وكان الإسبان لا ينقطعون عنهم" [26]، ولقد أطلقت عليهم المصادر إسم "المغاطيس"، وهذا الإسم خاص بهم ، وقد يكون هذا المصطلح يعني "المعمدين"، يعني الذين تلقوا المعمودية قبل إعتناقهم المسيحية، وقد يكون المعنى مجازا ، بسبب ولائهم وإخلاصهم للإسبان، أكثر من غيرهم، وقد قيل في ذلك أمور أخرى، فيذكر المشرفي دائما" فهذا الإسم هو لهم حقيقة ولغيرهم على المجاز، لعملهم إقتداء بهم، ويحكى أنهم غطسوا إمامهم الذي يصلي بهم، بأن باعوه للإسبانيين غفلة

منه، وكيفية التغطيس أنهم يأتون بدوابهم للدواوير ، على صفة الحضر المتجولين، بالدواوير ، البائعين للعطرية، ....فإذا وجد خبر أحضروه للنصارى، وإذا رؤوا فرصة في الصغير والكبير أخذوه وجعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلمن وحملوه على دوابهم ومشوا به ليلا لوهران،فيبعونه للإسبانيين"[27]، وكما رأينا تسكت المصادر عن معنى الحقيقي لمصطلح المغاطيس.

أما شافع فيذكر صاحب بهجة الناظر "...فتقوى بهم الإسبانيين غاية التمكين....فكم غزوا بهم على المسلمين، وكم سبوا بهم من المؤمنين، وكم جاسوا بهم خلال الديار"[28].

أما حميان فيسميهم المشرفي "المتنصرة", وهي كلمة وحكم خطير منه قد يعني التكفير ، وإن كان في مواطن أخرى ينعت بهذا المصطلح كل القبائل التي كانت متحالفة مع الإسبان، ويزعم أنهم أول من أتى الإسبان بقرب الماء، وساعدوهم على بناء حصن "مرجاجو"، حتى قيل أن هذا الإسم الغريب ينسب لزعيم حميان الذي أشار على الإسبان ببناء الحصن في ذلك الموضع من جبل الهيدور، ويقول المشرفي "ولهم بسالة عظيمة، ومكيدة شديدة في الحروب، وفتك عظيم في الإسلام، إذا ظفروا بأهله خفية أو علانية"[29].

أما غمرة" فقد نصروا الإسبانيين نصرة شديدة على المسلمين"، أما قيزة ومساكنهم كانت نواحي تارقة" كانوا أهل بأس شديد ولهم قوة وبطش، وفتك بالمسلمين قد نزع الله رحمته من قلوبهم.....ويسمون باللصوص، وإذا إشتد الحصار بالنصارى يسكنون معهم بالأبراج، ....وكانت لهم رياسة عظيمة مع الإسبانيين، ومحبة شديدة، ولا يتقون في الإسلام تقية...وكم لهم من غارة على المسلمين"[30].

أما أولاد عبد الله وهم من بني عامر ، كانت مساكنهم بسهل ملاتة" كانوا اشد نصحا وإعانة للأسبانيين على كل شيء، ولهم نكاية شديدة بالمسلمين، ومنهم أبونصابية ؟؟ أحد النصاصيب الذي قتل باي مازونة شعبان الزناتي"[31].

أما أولاد علي وهم كذلك من بني عامر" كانوا أهل إعانة شديدة للإسبانيين ، حتى غزوا بهم المرة بعد الأخرى على المسلمين بالكرط" ، وكان فيهم رجل شديد يدعى رابح بن صولة مل لبث أن ضعف وكبر في السن فظفر به الحشم وقتلوه[32].

ويقول المشرفي في تعامل أولاد علي مع الإسبان، "لم يكن أحد اشد اعتناء وإعانة للإسبانيين بكل ما يحتاجون إليه من التبن والحشيش والحطب والسمن واللبن والعسل والضأن والماعز والبقر والخيل والإبل والبغال والحمير من جميع الأعراب الداخلين تحت حكمهم مثل أولاد علي ....فكانوا لا ينقطعون عنهم بذلك ليلا و لا نهارا"[33].

في نفس الوقت لم تشذ قبائل شرق وهران عن منطق التعامل مع الإسبان، فنجد أن قبيلة سويد من المحال ، اتصلت بحكام الإسبان في وهران طلبا للتعاون ، ضد عدوهم المشترك المتمثل في الأتراك ،حيث أصبحت تخيفهم طموحات الإخوة بربروس، وبالخصوص بعد مقتل سالم التومي، وهناك رسائل بين زعماء سويد والحاكم الإسباني "دون مرتين" يطلبون نصرته ويتعهدون بالوقوف إلى جانبه[34]، كما أن قبائل أخرى مثل "أهل يفر"، وهي ضعيفة وقليلة العدد حوالي 150 كانون، وكان دورهم رعاية أحصنة الجيش الإسباني ورعاية قطعان الغنم والماشية[35] ،وقد ذكرت المصادر بعض من أولاد الميمون وأولاد إبراهيم وأولاد سليمان تعاملوا مع الإسبان ولكن بالقيام ببعض الواجبات الغير قتالية [36].

لكن من الظلم ألا نذكر الظروف التي اضطرت معها هذه القبائل للعمل مع الإسبان ، ومن بين هذه الظروف الطابع العدائي للحامية الإسبانية، حيث كان الطمع والجشع يدفع الإسبان إلى تنظيم غارات بدون مبرر معقول على الدواوير والقبائل التي طلبت منهم العون والحماية، وسهل من ذلك الطابع الجغرافي السهل والمنبسط للمنطقة ، والذي أعجز هذه القبائل على الدفاع عن نفسها ، والدليل على ذلك أن الإسبان في بجاية لم يكونوا يغامرون بالخروج إلى المناطق المجاورة لوعورة تضاريس المنطقة ، إلى جانب تخوف بعض القبائل من الأتراك وطموحاتهم ، خاصة لدى بعض رؤساء القبائل الذين خافوا على نفوذهم من مصير مماثل لما حدث لسالم التومي[37].

كذلك الطابع الزراعي لبعض القبائل في سهول ملاتة وغريس وسيرات وهبرة، حيث كان النشاط الإقتصادي الوحيد لهذه القبائل ، اضطرها للإذعان والدخول تحت حكم الإسبان، كأمر واقع خوفا من خسارتها لأوطانها ومصادر رزقها ، بما أنها لم تستطيع التغرب والفرار إلى المجهول.

كذلك جشع بعض رؤوساء القبائل وطمعهم في رشاوى وأموال الإسبان ، مقابل العمل معهم ،حيث كان ملك إسبانيا يبعث بأموال بشكل دوري إلى رؤساء القبائل المتعاونة لضمان ولائها[38].

هذا لا يعني إعفاء القبائل الموالية من الضرائب، فعهد الأمان كان مقابل قيام هذه القبائل بإحصاء عدد خيامها ، ودفع ضرائبها ، ويتم تسليم أبناء شيوخ القبائل كرهائن، حتى يتم تسديد كافة الضرائب، لكن قبائل شافع والونازرة وكرشتل، لم تكن على الراجح تدفع الضرائب.

وكان لوجود الإسبان أثر على أبناء هذه القبائل الذين وقعوا في الأسر أو أخذوا رهائن ، حيث بيع الكثير منهم وهم في الأصل أحرارا نتيجة عدم قدرة أهاليهم على دفع الضرائب للإسبان، وعُمد بعضهم خصوصا صغار السن منهم، وكانت أعدادهم نحو الثلاثين كل عام ، غير أن الذين ظلوا على مسيحيتهم هم من تلقوا التعميد وهم صغار [39].

إلا أن ذلك لم يكن يعني تعامل كل قبائل بايلك الغرب وارتمائهم في أحضان الإسبان، فلقد تصدت الكثير من القبائل منفردة أو مع السلطة التركية للأطماع الفرنسية ولقد استنكر الكثير من الصلحاء والعلماء صنيع تلك القبائل المتعاونة مع الإسبان ونعتوها بنعوت خطيرة قد تخرج أصحبها من طائفة المسلمين ، فمصطلحات "المغاطيس" "المتنصرة"، هي أحكام ثقيلة بقيت معرة مع الدهر لأصحابها ، ونهاهم على ذلك علماء كبار أمثال أبو العباس ابن أبي المحلي السلجماسي ، شيخ سعيد قدورة قائلا في قصيدة مشهورة :

فمن مبلغ عني قبايل عامر ولا سيما من ثوى تحث كافر
وكل كمي من صناديد راشد بتيجانها مع رأسها عبد القادر
إلى أن يقول بعدما استنجد بسادة القبائل المناوئة للإسبان
ويا سادة العربان من آل هاشم وغيرهم بالله ما صبر صابر
ويا معشر الأتراك يا كل عالم وكل ولي حافظ للأوامر
أناشدكم بالله ما عذر كلكم لدى الله في وهران أم الخنازر

في قصيدة طويلة ذكرها صاحب بهجة الناظر[40].

كما أن الصلحاء على غرار سيدي أحمد الراشدي المليانى والشيخ الخروبي، كانوا من أكبر المحرضين على الإسبان والمناصرين للأتراك ، كما أن قبائل أخرى رفضت الدخول تحت حكم

الإسبان ، على غرار البرجية ومجاهر وبني راشد وقبائل بني شقران والحشم،ومخيس والرفافرة ، كما قاد "ولد الممدود" وهو من رؤساء قبائل غريس قومه لحرب الإسبان وأعوانهم من حميان وغمرة والونازرة وقيزة وشافع ،وإلتقوا بسيق فكانت الدائرة على الإسبان،بعد معركة تكافئ فيها الطرفان(41).

وفي حادثة أخرى حاول الإسبان غزو عبيد الشراقة قرب المقطع،وكان الخبر قد تقدم لعبيد الشراقة، فاجتمع معهم عبيد الغرابة وهبرة والبرجية ومجاهر فدارت الدائرة على الإسبان وكان أكثرهم غنيمة للمسلمين، ورجعت فلولهم لوهران،ومن ذلك الوقت أتوا بحميان من ملاتة وأنزلوهم بهذه الأرض ترسا بينهم وبين هؤلاء الأعراش،ومنذ ذلك الحين سوف يتذبذب ولاء حميان فتارة للإسبان وتارة للعرب(42).

ووقائع قبيلة هبرة الإسبان مشهورة وكثيرة حتى ألف أبي العباس أحمد بن محمد الشقراني كتابا في ذلك سماه" القول اليقين في وقائع هبرة مع الإسبانيين"، لكن عداء هبرة وسويد وحروبهم المتكررة كسر شوكة هبرة ،ومرد هذا العداء تعرض هبرة للأندلسيين ،ولذلك حرض سيدي محمد أقدار التيجيني حميدة العبد كبير سويد على هبرة ،فغزاهم وشتتت شملهم فتفرقوا ومن تم خلى الجو للإسبان (43).

وظلت تلك القبائل تحت رحمة الإسبان قد ربطت مصالحها بمصالحهم ، بشكل يدعو إلى الحيرة ، وناصروا الإسبان بشتى الطرق ،كجند في صفوف قواتهم يغيرون على بني جلدتهم مع الإسبان ، وثارة يمدونهم بما يلزمهم ، ويعملون جواسيس وكشافين لصالحهم ضد باقي القبائل العاصية أو ضد الأتراك ، ولم يتخلوا عن الإسبان حتى في أيامهم الأخيرة ، فهذا الباي بوشلاغم قد خسر وهران بعد الفتح الأول بسبب خدلان بني عامر(44)، الذين عرفوا بعدائهم

للعثمانيين فشيخهم عبد الرحمن بن رضوان كان من الأوائل الذين دخلوا تحت حكم الإسبان ، مباشرة بعد استشهاد عروج[45]، وزاد من ذلك تقريب العثمانيين لبني راشد أعداء بني عامر.

ولعل أمر هذه القبائل المتعاونة مع الإسبان كان محل ريبة وحذر من طرف باقي القبائل والسلطة العثمانية ، وظل الأمر كذلك حتى بعد التحرير الثاني لمدينة وهران ، وكيف لا يكونوا الأمر كذلك، وقد أثر البعض منهم من الونازرة، الذهاب مع الإسبان إلى سبتة وعدم البقاء بوهران[46]، لكي لا يشمت بهم باقي القبائل.وبعض القبائل قاتلت مع الباي بوشلاغم لكنها كانت في السر تعلم الإسبان بكل صغيرة وكبيرة، وفئة تابت وأنابت وصارت من جند المسلمين وأخلصت في ذلك ، رغم أن بعض العلماء شد في الأمر وحكم بقتل جميع من تبت تعامله مع الإسبان ، مثل الفقيه أبو العباس أحمد الفلالي التلمساني[47].

كما أن باي وهران استشار العلماء في أمر المغاطيس الذين بوهران، هل يؤمنهم خوفا من أن يذهبوا مع الكفار إلى بلادهم فيتنصرون أو يتنصر عقبهم ، فأشاروا عليه بتأمينهم ، فبعث إليهم بكتاب يأمرهم بالقدوم عليه آمنين[48].

الإحالات

1- محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص32.

2- مرجع نفسه، ص32.

3- مرجع نفسه، ص32.

4- ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1983،الجزء الثاني ،ص30 .

5- مرجع نفسه، ص30.

6- مرجع نفسه،ص30.

7- مرجع نفسه،ص31

8- عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت،ص12

9- الزياني ، مرجع سابق، ص

10- عبد القادر المشرفي، مرجع سابق،ص 14.

11- الزياني ، مرجع سابق،ص146 .

12- المشرفي، مرجع سابق 35 .

13- الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا إلى أواخر القرن التاسع عشر ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990،ص 276

14- المرجع نفسه،ص 287.

15- المرجع نفسه،ص 322.

16- المرجع نفسه،ص ص، 326،335.

17- المرجع نفسه، ص337، ينظر أيضا الزياني مرجع سابق ،ص 158.

18- الزياني، مصدر سابق141.

19- Didier Léon Jules, Histoire d'Oran, période 1501 a1550, Imprimerie Jeanne d'Arc ,Oran, 1927,p75

20- Ibid., p75

21- Ibid., p76

22- Ibid., p77

23- Ibid., p76

24- Ibid., p77

25- كمال بن صحراوي، أوضاع الريف في بايلك الغرب أواخر العهد العثماني، مذكرة تخرج لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة وهران، 2013/2012، ص80

26- المشرفي ، المصدر سابق ،ص04.

27- مرجع نفسه،ص03.
28- مرجع نفسه،ص14.
29- مرجع نفسه، ص15.
30- مرجع نفسه،ص16.
31- مرجع نفسه،ص17.
32- مرجع نفسه،ص18.
33- مرجع نفسه،ص18.
34- Feraud L Charles, Lettres arabes de l'époque de l'occupation espagnole en Algérie, revue africaine, N° 17, année 1837 ,p314.
35- دغموش كاميلية، قبائل الغرب الجزائري بين الإحتلال الإسباني والسلطة العثمانية (1509–1792) ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2014، ص70.
36- مرجع نفسه،ص64.
37- مرجع نفسه،ص65.
38- مرجع نفسه،ص71.
39- كمال بن صحراوي،مرجع سابق،ص82.
40- عبد القادر المشرفي، مرجع سابق،ص ص19 ،20
41- الزياني، المرجع سابق، ص148.
42- مرجع نفسه، ص158.
43- الآغا المزاري، مرجع سابق، ص212.
44- مرجع نفسه،ص 256.
45- Feraud L Charles, op.cit, p319.
46- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، ص446.

47- عبد القادر المشرفي، مرجع سابق، ص38 .
ابن سحنون الراشدي،مرجع سابق،ص445.